سنوات المصير (1939 ـ 1941)

هي ذي أحجار نرد اللعبة الهائلة
فمن يجرؤ على رميها؟

أوسفالد شبنغلر، سنوات المصير

كان الجنرال إرنست كوسترينج، الملحق العسكري الألماني في موسكو، رفيق أحاديث زائرين كثيرين خلال إجازته الصيفية التي أمضاها عام 1939 في برلين. ولأن دوائر وظيفية مختلفة حرضته، فإنه لم يجد مناسبة لزيارة بيت نيدرماير في شارع هاجن من غابة جرونفالد الجميلة. لكنه قرأ باهتمام كبير ورقة طويلة أرسلها نيدرماير إليه، قبل أن يعيدها إلى مؤلفها من موسكو وقد زودها بملاحظات عديدة[1].

معاهدة وحروب

كان هناك أسباب جدية لمحادثات كوسترينج الرسمية العديدة في برلين، فقد أعلن ستالين في آذار من عام 1939 خلال المؤتمر الثامن عشر للحزب الشيوعي أنه لا يعتزم سحب النار من الكستناء كرمى لبريطانيا

1. ورقة نيدرماير: سياسة السوفييت العسكرية من مصادر المعلومات، وعرض (47 صفحة). موجودة مع رسالة كوسترينج بتاريخ 3 تموز 1939 في تركة فريتز نيدرماير.

العظمى وفرنسا. وألمح دون تحفظ إلى رغبته في تحسين العلاقات السياسية مع ألمانيا النازية، وأضاف أنه لا توجد تناقضات مصالح يمكن أن تبرر نشوب نزاع مسلح بين برلين وموسكو، كما لم يكن هناك علامات من الجانب السوفييتي تشير إلى ذلك. أخيرا، وفي 3 أيار 1939 عين مولوتوف وزيرا لخارجية الاتحاد السوفييتي، وفتحت في الأسابيع التالية مفاوضات اقتصادية ألمانية / سوفييتية طرقا جديدة للتفاوض بين برلين وموسكو.

في 31 أيار عقدت بريطانيا العظمى معاهدة تضمن فيها سلامة وأمن بولونيا، كانت بدورها علامة من غير الجائز أن تسئ ألمانيا قراءتها، تؤكد أن لندن ليست مستعدة إطلاقا لقبول أي عمل يقوم به هتلر ضد بولونيا. لئن كان الساسة البريطانيون قد قبلوا ضم النمسا وتسليم بلاد السوديت إلى الرايش الألماني، لأن التوسع الألماني بخطى صغيرة لم يمس بمصالحهم الحيوية، أو يخل بالتوازنات في أوروبا، أو يهدد أمن الإمبراطورية البريطانية العالمية، إلا أن احتلال «بقية تشيخيا» وتأسيس دولة سلوفاكيا التي دارت في فلك هتلر، أكدت أنه يلاحق أهدافا بعيدة المدى، لم يكن قبولها ممكنا حتى بالنسبة إلى الساسة البريطانيين الراغبين في توازن مع النظام النازي.

منذ ألقى ستالين خطابه في الحزب، لاحت إمكانية مغرية لعيني هتلر، الذي صار قادرا على التقاط خيوط جيش الرايش القديمة من جديد، بعد أن كان قد قطعها هو نفسه. وكان هناك نقاط اتصال شخصية كثيرة على الجانب الألماني. وعلى كل حال، فإن الجنرال كوسترينج، مرافق أنور باشا عام 1920 إلى الخطوط البلشفية، كان من حرس سيكت ونيدرماير القديم.

لم تنصب ورقة نيدرماير، التي قرأها كوسترنج باهتمام قبل عودته بفترة قصيرة إلى موسكو، على الوضع صيف عام 1939 مباشرة. إنها بالأحرى نص محاضرة ألقاها نيدرماير قبل خطبة ستالين الحزبية، ليس من الواضح أين ألقاها وفي أية دائرة ومتى، وإن كان واضحا أن المستمعين كانوا خبراء ممتازين، وربما أشارت بعض تفصيلات القانون الدولي إلى ندوة نظمها

«معهد السياسة والقانون الدولي في جامعة كيل» بين 29 آذار و 1 نيسان 1939 بمناسبة العيد الفضي لتأسيسه. مهما يكن من أمر، طلب نيدرماير السرية من سامعيه، وقال لهم: «لن أتردد لحظة واحدة في حمل المسؤولية عن ما أقوله، لكنني أرجو مراعاة أن شروحي مكرسة لدائرتكم الضيقة، وأنه لا يجوز إعلام الرأي العام بأي جزء منها دون استشارتي».

عالج نيدرماير الأسس الأيديولوجية والاقتصادية لسياسة السوفييت العسكرية، وقاعدتها من المواد الأولية، وبنيتها التحتية، ومهامها التسليحية، ومخزونها العسكري، انطلاقا من مسافة علمية وعلى أرضية إحصاءات عالجها بعناية. لكن كوسترينج، المسؤول كملحق عسكري في موسكو عن المادة التي عالجها نيدرماير، لم يقتنع باستنتاجات نيدرماير بعد قراءتها. وربما كان لديه شعور بأن نيدرماير يولي اهتماما كبيرا بمسائل مجاله التخصصي الخاص. وقد أخبر المؤلف يوم 3 تموز 1939 بتحفظاته، وقال: «آمل أن لا تأخذ حكمي الختامي على محمل السوء. إنها تجربة لطالما قمت بها، وهي أن دراسة روسيا نظريا تجعل حتى العارفين الممتازين والعمليين بهذه البلاد من أمثالكم يرون التطورات والأحداث هنا في ضوء ملائم». وأضاف أن تقدير نيدرماير لقدرات الاتحاد السوفييتي العسكرية لا يتفق مع الحقيقة. كان كوسترينج فارسا من المدرسة القديمة: «أن المعاينة الشخصية للأشياء تعطيني الحق في الإحساس، وهذا أمر يصعب التقاطه بصورة ملموسة في الظواهر المتفرقة، بأن تصوركم يقع على حدود «ما هو ملائم». ثم أورد ملاحظة ختامية أكثر نقدية كتبها بخط يده، تعقيبا على تقويم نيدرماير لقدرات الاتحاد السوفييتي العسكري والتقنية الحربية، التي اعتبرها «ملائمة جدا». انتقد كوسترينج وصف نيدرماير لقدرات السوفييت التسليحية، وكتب ردا على تأكيد الكاتب: «وقد تم إقامة قاعدة تسليح مستقلة عن الخارج، حققت بعض الإنجازات المدهشة» جملة تقول: «ليس هذا صحيحا!».

تدل مقارنة نص نيدرماير وملاحظات كوستربنج الهامشية في ضوء تجارب القوات المسلحة منذ حزيران 1941 أن نيدرماير، الذي لم يكن في الاتحاد السوفييتي بعد كانون الأول 1931، قوَّم على وجه الإجمال قوة وقدرات الجيش الأحمر بدقة أكبر من الملحق العسكري الألماني في موسكو. لا شك في أن تقويم كوستربنج للقدرات العملياتية للجيش الأحمر، وخاصة في الهجوم، قد تأكدت أول الأمر في حرب الشتاء السوفييتية ضد فنلندا عام 1939/ 1940. لكن الملحق لم يفهم بصورة كافية أطروحة نيدرماير المركزية: وهي أن الجمعية الإجبارية للزراعة السوفييتية أرست الشروط الأولية لتحديث سريع في مجالات مفتاحية استراتيجية الأهمية في المجتمع والصناعة، وحولت في وقت قصير الفلاح الروسي إلى العامل السوفييتي، جعلت بالمستطاع تحويل مصانع التراكتورات العملاقة الحديثة البناء إلى مصانع قادرة على بناء دبابات ذات قدرات رفيعة، علما بأن سائقي تراكتورات الكولخوزات والسوفخوزات (مزارع الدولة والمزارع الجماعية) ومن يركبونها ويصلحونها هم أطقم الدبابات السوفييتية في الحرب القادمة.

كان نيدرماير يعرف أنه بهذا التقويم الصاحي يجعل نفسه مكروها في دوائر الحزب النازي الأيديولوجي. وهو يقول حرفيا في بداية محاضرته: «يستطيع المرء، كما خبرت بنفسي ذات مرة قبل وقت طويل ـ أن يجعل نفسه مكروها لدى دوائر معينة، إذا لم يتفق عرضه ـ مهما كان موضوعيا ـ مع الصورة الدعائية التي تروجها». وقد وضع كوستربنج إشارة تعجب وراء هذه الملاحظة. وعندما انخرط نيدرماير في نهاية محاضرته في خط النظام النازي الرسمي، ودعا إلى تكوين جماعة أوروبية تصد الخطر القادم من الشرق، بالمعنى الذي قصده مؤتمر الحزب في نورنبرج عام 1938، كتب كوستربنج ملاحظة مقتضبة وساخرة تقول: «أتريد هذا الآن أيضا؟. ك ج 1/ 7/ 1939».

بعد شهرين، في الأول من أيلول عام 1939، بدأ الهجوم الألماني على بولونيا، بعد أن وقع ريبينتروب ومولوتوف في الثانية من صباح يوم 24 آب معاهدة عدم الاعتداء الألمانية / الروسية.

الصمت خيانة!

لم تسد النشوة في برلين خلال أسابيع الحرب الأولى وشتاء 1939 / 1940. صحيح: أن «الحرب الخاطفة» ضد بولونيا بدت كنجاح ميداني كبير للقوات المسلحة. لكن الانتصار السريع الذي حققته وحدات دبابات وسلاح جو ألمانيا، التي كانت قد تدربت في روسيا، لم تستطع خداع العارفين بالأمور، ذلك أن نواقص تسليح القوات المسلحة كانت كبيرة، وتقدمت أفواج كثيرة إلى الشرق وليس لديها غير الخيول. لذلك ركزت برلين العسكرية والسياسية على جولة السلاح القادمة في الغرب، لاعتقادها أن نزاعا حربيا أكثر صعوبة بكثير ينتظرها مع الدولتين الصناعيتين الكبيرتين بريطانيا وفرنسا. بدوره، كان معهد نيدرماير، الذي أصدر قبل الحرب بفترة قصيرة أطلس فرنسا، يعمل الآن تحت ضغط شديد لإصدار أطلس أكبر حجما بكثير عن الإمبراطورية البريطانية العالمية.

لكن نيدرماير لم يكن مشغولا بمجرى الحرب وحده، بل كان قلقا بسبب تطرف النظام، الذي أخذ يثير مخاوف حتى العلماء، الذين كانوا أعضاء في الحزب، خاصة وأن القيادة النازية كانت تدمر مكانة ألمانيا كموقع للعلم والبحث من خلال سياستها التعليمية المعادية للفكر. وقد تجرأ الأستاذ ويليام جيرلر، المدير الذائع الصيت لمعهد التعدين والمواد الأولية في جامعة درسدن التقنية وناشر «مجلة علوم المعادن»، ولفت أنظار قيادة الرايش العليا في كتاب خطي إلى تراجع مستوى العلم في الجامعات الألمانية. لقد كان نازيا لا يشق له غبار، أعلن عام 1931 انتسابه إلى هتلر، فاعتقد أن من حقه لفت نظر هتلر إلى تدهور التعليم الألماني، وكتب إليه قائلا: «لا يمكن ولا

يجوز أن تستمر الأمور على ما هي عليه!. وإذا كنتم لن تتدخلوا، فإن الجيل التقني القادم سيضيع بقضه وقضيضه!»[2].

ليس هناك ما يشير إلى أن هتلر قرأ بنفسه رسالة جورتل، فقد فضلت مستشارية الرايش إرسال «الالتماس المهم» إلى المكلف بالخطة الرباعية هرمان جورينج، وإلى القادة الإثني عشر الآخرين الذين يتولون أعلى مناصب الرايش، وجميعهم في مراتب وزارية، ورجت وزارات الرايش للتربية والداخلية والمالية والاقتصاد والعمل والعدل والمواصلات والبريد والتسليح اتخاذ موقف منه. كما طلبت إلى نائب الفوهرر، رودولف هيس، وإلى وزير مالية بروسيا يوهان بوبيتس، وإلى رئيس القيادة العليا للقوات المسلحة فيلهلم كايتل الإدلاء برأيهم حول نقد جورتلر.

انفرد واحد من هؤلاء بتسمية الساسة النازيين ومؤسسات النظام المسؤولة مباشرة عن تدهور مستوى التعليم في المدارس العليا الألمانية. كان هذا موقف القوات المسلحة، الذي كتبه العقيد الأستاذ الدكتور أوسكار ريتر فون نيدرماير، وأرسله كايتل، رئيس القيادة العليا مع رسالة بيروقراطية إلى مستشارية الرايش. في هذا التقويم، قصّر نيدرماير ملاحظاته بحذر على وضع جامعة برلين: «إلى أي حد تنسحب تأكيدات هذا التقويم على جامعات ألمانيا الأخرى، هذا أمر لا يعني به تقويم القيادة العليا للقوات المسلحة». مع ذلك، أراد كيتل أن يتم معالجة الأمور من جذورها: «لكنه من المرحب به أن يطرح هذا الموقف مسائل لا تستطيع القيادة العليا التدقيق فيها، لكنها تنصح أن توليها الجهات المسؤولة ما تستحقه من اهتمام».

بخلاف جورتلر، الذي جعل شاغله وضع العلوم الطبيعية، أكب نيدرماير على العلوم الإنسانية أيضا، التي تجد نفسها «في مواجهة كره لا

2. من أجل معرفة النقد الداخلي لسياسة النازيين التعليمية والجامعية. انظر هيلموت ساير: العميد كقائد، في فصلية التاريخ الحديث، الجزء 12 (1964) ص 105 ـ 146.

مسوغ له في الرايش الثالث». وقال إن العلوم الإنسانية خضعت في الدولة النازية لضغوط متزايدة، لذلك طلب نيدرماير الاعتراف الرسمي والدعم المالي للبحث الأساسي الخاص بها. لكنه أدان قبل كل شيء محاولات تدجينها الأيديولوجي، وموظفي عصبة الشباب الألمانية الاشتراكية القومية، المنهمكة في دسائس تمس بالتعليم العالي، وتهمل المصالح الأصلية للطلبة، وترفضها أغلبية زملائهم: «بينما تبذر السياسة الطلابية في الأعم الأغلب الشقاق بين الأساتذة والطلبة، نجد أن الأساتذة، الذين يقصدهم الطلبة غالبا كي يساعدوهم في مآزقهم الروحية ويشرحوا لهم سياسة عصبة الطلبة، يحاولون إبقاءهم موالين للفكرة النازية». ثم توقع نيدرماير مقاومة متزايدة يبديها الطلبة لسياسة النظام، في حال لم يتغير المناخ السياسي والفكري؛ تتكون «روح مقاومة خفية لا تعبر عن نفسها، لكن المرء يحس بها بوضوح».

لهذا السبب، نصح نيدرماير «بتبدل داخلي» في المدارس الألمانية العليا والسياسة المتبعة حيالها، وبإبداء مزيد من الاحترام تجاه «مهنة الأستاذ التي ينظر إليها بعين السوء»، وبوضع علماء لهم شهرة حقيقية في مناصب العمداء». وختم بنداء: «ليختف أنصاف العلماء المنظمون وفرسان السياسة الظرفيون، الذين يشوشون ويسممون الحياة الأكاديمية، ولتأت قيادة اشتراكية قومية علمية». لا شيء يدل على أن مستشارية الرايش أطلعت هتلر على موقف نيدرماير.

أرفق كايتل بمذكرته إلى مستشارية الرايش مذكرة ثانية كتبها نيدرماير مع زميل له هو مدير حلقة بحث اللغة الألمانية وعميد كلية الفلسفة في جامعة برلين فرانز كوخ، وضعا لها عنوانا تحذيريا هو «الصمت خيانة!». وكان العالم اللغوي المعروف قد كتب عام 1937 دراسة حول «جوته واليهود»، وأثبت مصداقيته السياسية. ليس واضحا أي المؤلفين بادر إلى تأليف المذكرة، وإن كان كوخ قد عزاها إلى نفسه عام 1964: «كنت أريد إنجاز

العمل كله بمفردي، دون أن أشرك فيه أحدا، لعلمي بما كنت أقدم عليه من مخاطرة . . .». ولكن حتى لو كانت المبادة قد أتت من كوخ، فإن نيدرماير تبنى مضمونها وأمر بنسخه وتوزيعه. ومن المحتمل أن يكون جزء من صياغاتها الحادة، التي تتفق وطبعه الاندفاعي، قد كتب بقلمه. وعلى كل حال، فقد أرسل نسخة من المذكرة إلى شقيقه فريتز يوم 5 كانون الثاني 1940 مع ملاحظة حانقة تقول: «بغرض الاستمتاع».

تنتقد «الصمت خيانة» سياسة التعليم النازية بحدة غير مألوفة. وهي تدين تسييس الجامعات، وتسطيح التعليم المقصود، وتحقير التكوين من خلال العلوم الإنسانية: «لقد تم تحطيم سلطة الجامعة بالمعنى الواسع للعلم، ويعتبر الأستاذ، الذي يعد ببساطة مجرد مثقف، ظاهرة مشكوكا فيه من حيث المبدأ». واستنكر كوخ ونيدرماير بصراحة ما يريده القائد يوليوس شترايتر، ناشر جريدة «المهاجم» وضد مجلة ال إس إس «الفيلق الأسود»، لأن شترايتر والنافذين من رجال ال إس إس كانوا في نظرهما حملة سياسة تربوية تقوم على العماء الأيديولوجي، اختارت الأساتذة هدفا لهجماتها وحملاتها: «ثمة عارضان يمكن إيرادهما كأدلة في هذا السياق. فقد ألقى قائد المحافظة شترايتر خطبة في جامعة برلين عام 1938، لم تكن من أولها إلى آخرها غير حملة استفزازية، بل شتائمية ضد الأساتذة، الذين دعوا إلى سماعها». إلى هذا: «يشير المثال الثاني إلى «الفيالق السوداء»، التي تتساءل في عنوان أحد مقالاتها الرئيسة (بتاريخ 9 شباط 1939، السلسلة السادسة، العام الخامس): ماذا تعني التربية؟. وتحدد من ثم مضمون المقالة انطلاقا من هذا السؤال الاستنكاري».

غطى كوخ ونيدرماير باستشهادات كثيرة افتقار الهجمات، وحذرا بإلحاح قائلين: «لم يكن ممكنا على الإطلاق في أي وقت تحقيق نجاحات علمية كبرى، أو أية نجاحات أخرى، دون أساس أخلاقي، ودون تناغم الفكر والمعرفة والموهبة كتعبير عن الشخصية الناضجة». أخيرا، وبصفتهما

ممثلين لكلية الفلسفة، هاجم كوخ ونيدرماير ميول التحديث النفعية الصرف، التي تسم السياسة التعليمية النازية، بتركيزها على التقنية والعلوم الطبيعية: «وتجاهلها حقيقة أن تحقيق إنجازات في مجال العلوم الطبيعية مستحيل، بل ولا يمكن حتى مجرد التفكير فيه، دون إسهام العلوم الإنسانية، وأن الشعب الأميركي سيسقط نهائيا فريسة نزعة الأمركة، إذا ما تقوضت العلوم الإنسانية». وقع تداول «الصمت خيانة» كمذكرة سرية ضمن نخبة الرايش البرلينية، وأرسل نيدرماير الوثيقة مطلع عام 1939/ 1940 إلى كارل هاوسهوفر أيضا، وقد حمل هامشها كلمة «سري»[3]، فأرسل هذا النص بدوره مع مذكرة وزير الرايش للشؤون الكنسية هانس كيرل إلى رودولف هيس يوم 9 كانون الثاني عام 1939، ونصحه بإلحاح أن يقرأ المذكرتين اللتين أعتقد أنه يرجح أن يكون قد تلقاها بصورة مباشرة، أولاهما بقلم وزير الرايش كيرل حول «مهمة وهدف قيادة الشعب الاشتراكية القومية في المسألة الدينية»، والثانية بعنوان «الصمت خيانه»، وضعها كوخ ونيدرماير حول الانحدار المؤسف في تعليمنا العالي وتربية طلبتنا.

أشار هاوسهوفر من طرف خفي إلى أنه فقد هو نفسه أوهامه حول النظام النازي، وكتب: «لا أعلم إن كنت قد تلقيتهما، أو كيف تم إخبارك بمضمونهما، لكنني أعرف بالتأكيد أنهما كلتاهما صحيحتان، وأنهما من وضع أشخاص نزيهين وشرفاء، وأننا كنا سنسر بهما كثيرا في الزمن الجميل، الذي حلمنا فيه سوية طيلة سنوات خمس بجمال رايش ألماني عظيم ومتجدد».

أخرج نيدرماير النزاع حول السياسة التعليمية إلى العلن، عندما حذر في أيار من عام 1941 في مجلة «الرايش» الأسبوعية[4] من الميل إلى إقامة درجة

3. هانس آدولف ياكوبسون: كارل هاوسهوفر، الجزء الثاني، ص 419.
4. أوسكار نيدرماير: الحرب والعلم. في «الرايش»، رقم 21، 25 أيار 1941.

من التناقض بين الحياة السياسية والفكرية تسئ إلى التربية الفكرية باعتبارها ضرب من العقم السياسي. وكان قد نشر في 5 آذار عام 1940 مقالة في فصلية «تجديد ألمانيا» تحت عنوان «القوات المسلحة والمدرسة العليا»[5]، غلّف فيه نقده بلغة مشفّرة وزوده بعبارات الولاء للنظام، مع أنه تخطى في نقطة جوهرية ما كان قد كتبه في مذكراته حول المدارس العليا. لقد بدأ المقالة بتحذير من إبادة الشعوب الأخرى وإفنائها: «تنصب الأمور دوما في عصر الحروب الشعبية على بقاء الفرد والمجموع، وإلا انحدرت الحروب الشعبية بسهولة إلى بربرية آسيوية قروسطية. عندئذ تفهم الإبادة إفناء سواء كان الإفناء دمويا أم غير دموي».

رأى نيدرماير في السياسة الأنجلوساكسونية، التي لشد ما أبدى هتلر إعجابه بها، نموذج سياسة أدت إلى إبادة مجموعات شعوب كاملة: «إن سلوك هذه الطريق الخطرة من جديد هو «إنجاز» إنجلترا، حيث أسئ بصورة تامة فهم وتفسير نظرية فكرة الإبادة، التي ترجع إلى كلاوزيفيتز. في نظر نيدرماير، وسعت الاستراتيجية البريطانية، التي تفكر بمقولات الحرب البحرية، فكرة إبادة تقتصر على قوات العدو المسلحة، وجعلتها تشمل اقتصاد ومجتمع العدو. وكان نيدرماير يعلم أن «معسكرات الاعتقال» لغير المقاتلين اكتشاف جاءت به الحملات البريطانية الحربية الاستعمارية، وأن البلاشفة استخدموها بعد الحرب لمكافحة العدو السياسي الداخلي.

هل أعتقد عضو الحزب النازي نيدرماير حقا بقدرته على كبح النظام النازي من خلال تصورات الشرف العسكرية التقليدية للجيش الألماني والتقليد الفكري لمدارس ألمانيا العليا؟. «ليحذر المرء أيضا من استخدام النظرة إلى العالم ضد العلم، عبر تفكير سياسي شعاراتي ساذج، وليحذر أخيرا من إحلال النظرة إلى العالم محل العلم». ثم دعا إلى حرية العلم

5. انظر فصلية «تجديد ألمانيا»، العام 24، الدفتر الأول، آذار 1940، ص 8 ـ 12.

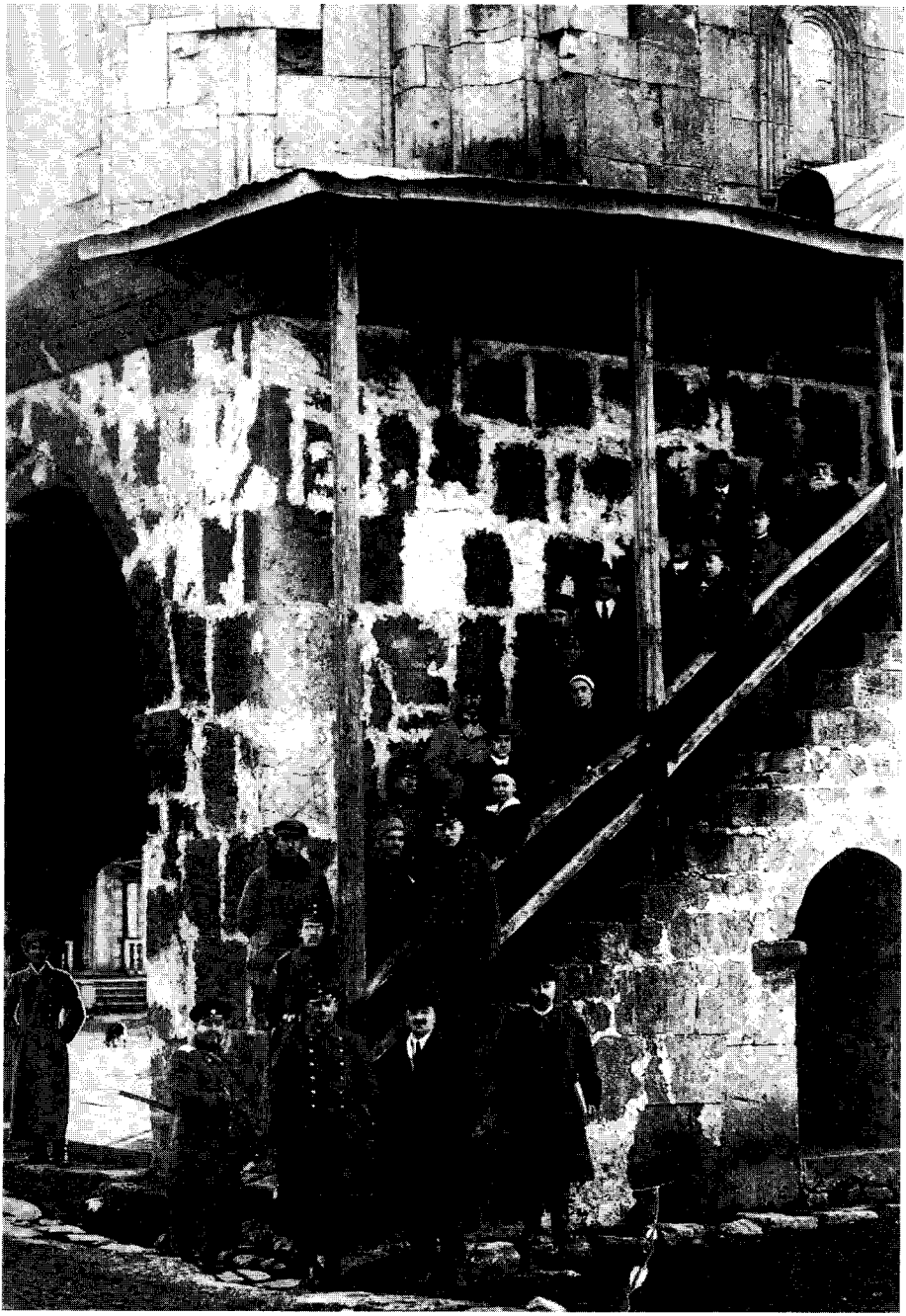

18. أعضاء بعثة القوقاز الألمانية في دير جيلاري يوم 15 كانون الثاني 1919. وسط الصف الأأل من الصورة: الطبيب فريتز نيدرماير.

19. الانتصار الأخير لقوى المحور: ضابط نمساوي في تفليس7 أيلول عام 1918.

20. أخوة السلاح: بروفيسور فريدريك ساره (إلى اليمين) المدير الأول للمتحف الإسلامي في برلين مع أنور باشا (في الوسط)، قائد الأتراك الفتيان ووزير الحرب وصهر السلطان.

22. الشريك في الكرملين: كارل راديك.

21. ولي الأمر في برلين: هانس فون سيكت.

24. الصديق ـ اللواء المتقاعد البروفيسور كارل هاوسهوفر.

23. العدو ـ السفير أولريش جراف فون بروكدورف ـ رانتساو.

25. «مركز موسكو» يحتفل بعيد الميلاد عام 1927. وقوفاً إلى اليمين أوسكار ريتر فون نيدرماير. الثانية يساراً بين الجالسين: بيرتا (لوته) فون نيدرماير.

27. نيدرماير بصفته «ناومان ألياس زيبرت» عميل جيش الرايش المزدوج.

26. لاعب التنس القدير: نيدرماير (إلى اليمين) في موسكو. صيف عام 1927.

وإلى مفارقة النزعات العقيدية: «لكننا نعرف أن الاشتراكية القومية، على النقيض من كنيسة روما والماركسية، تستطيع أن تشعر بقدر كاف من القوة والأمان يجعلها تضع البحث العلمي على مسار حر، خاصة وأنها حركة وتجافي أية عقيدة جامدة، وأن عليها البقاء كحركة، إذا كانت لا تريد خسارة قوتها الثورية». هل كان نيدرماير، محرض الشرق والضابط المنضبط، الكاثوليكي رسميا وشريك كارل راديك في العشرينات، ثوريا غير عقيدي، أراد مقاومة سائر التراتبات الكنسية والأيديولوجيات الحزبية؟.

تفاقم نزاع نيدرماير مع مؤسسات النازية في نهاية الأمر داخل الجامعة أيضا. كان قد تأسس في جامعة برلين معهد العلاقات الخارجية خارج كلية الفلسفة، وكان المعهد على صلات وثيقة مع ال إس إس والدوائر الحزبية. وقد استغل على موضوعات قريبة من موضوعات نيدرماير، وهكذا اقترنت الفوارق الأيديولوجية بالحسد الأكاديمي. بعث نيدرماير يوم 27 آذار عام 1940 رسالة إلى عميد كلية الفلسفة فرانس كوخ يقول فيها[6]، بلغتني بطرق جانبية تثير الانتباه إشاعة تشي بوجود نية في إلحاق معهدي السياسي العسكري بكلية الخارج العلمية».

كان نيدرماير حازما في رفض هذه الفكرة: «دون أن أرفض مد يد المساعدة علميا، حيث يحتاج المرء إلى مساعدتي ويبدي الاستعداد لاتباعها، أود أن أوضح لكم بأقصى قدر من التصميم بأنني سأناضل بحيوية من أجل البقاء في كلية الفلسفة». ثم دعم موقفه بحجج، تشير مرة أخرى إلى شخصيته الملتبسة. فمن جهة عمل معهده متجاوزا الاختصاصات، وتخطت الموضوعات التي أشرف عليها حدود الكلية الضيقة. ومن جهة أخرى أولى قيمة عظمى لكونه عالما ينشط في حقل العلوم الإنسانية ويريد أن يبقى منتميا إلى كلية الفلسفة التقليدية: «لقد تخرجت منها، وفيها وجدت

6. أرشيف جامعة هومبولدت في برلين: الجزء الثاني، ص 71.

أرضيتي الفلسفية والتاريخية، التي نمت منها نظريتي، ولا بد أن تبقى على الدوام في أوثق ارتباط معها». وكان يرفض الانتماء إلى مؤسسة جديدة يهيمن عليها علماء شبان من ذوي الارتباطات السياسية: «إلى هذا، فإنني كجندي قديم لا أقدر أن أخضع لإمرة قيادة علمية غير مجربة ولا أعترف بها». ساند عميد كلية الفلسفة نيدرماير، الذي تلقى تهنئة منه يوم 8 تشرين الثاني عام 1940، بمناسبة احتفاله بعيد ميلاده الخامس والخمسين، ورد للتو عليها، رابطا شكره للعميد «بالرغبة في أن تسمحوا لي بالبقاء مرتبطا معكم في النضال من أجل فكرة جديدة تسود جامعتنا».

أكد نيدرماير في «الصمت خيانة» أن: «العالم الحقيقي يحرص على الانكفاء بصمت، حين يواجه الإكراه والقسر». إلا أنه لم يفعل هذا، عندما عارض عام 1940 بقوة سياسة الحزب النازي الجامعية. هل يرجع السبب في ذلك إلى أنه لم يكن هو نفسه عالما «حقيقيا»، وإنما كان عالما «سياسيا»؟. لكن نيدرماير أظهر أيضا بعد مساجلة عام 1940 علامات على الاستسلام، وانسحب مطلع عام 1941، بعد عام من مذكرته التي طالبت بمسار حر للبحث العلمي، ليس إلى صومعة العالم بل إلى الحرب. وقد برر يوم 25 أيار عام 1941 أمام كايتل، رئيس القيادة العليا للقوات المسلحة، رجاءه الذهاب إلى الحرب بالقول: «إن الظروف السائدة في الجامعات الألمانية وفي إدارة التعليم محزنة، وسمعة العالم الألماني تدهورت إلى درجة تجعلني أتخلى اليوم قبل غدا عن هذه الوظيفة، وأرغب في أن أصير جنديا من جديد»[7].

كارل شميت

وضعت الشريحة القائدة للرايش الألماني عينها على العالم عام 1940،

7. فرانس سايدلر: أوسكار نيدرماير في الحرب العالمية الثانية. في منظورات علمية عسكرية، السنة 20 (1970)، ص 168 ـ 174 و 193 ـ 208 و 170.

بسبب طموحها إلى القوة. وكان معلم نيدرماير الجنرال فون سيكت قد تنبأ عام 1915 أن حربا كبرى جديدة ستنشب بين القارات هي التي ستقرر نمط النظام العالمي المقبل. من جانبه، كان أوسكار نيدرماير عام 1939 / 1940 ممثل علم سياسي ركز اهتمامه بالدرجة الأولى على النجاح في حرب عالمية، رغم نقده الداخلي للتطورات الخاطئة والكارثية.

وجد نيدرماير صدى واعترافا في جمعية برلين الأكاديمية. ودعي في أيلول من عام 1939 منح عضوية لجنة «معهد الرايش لتاريخ ألمانيا الجديدة»، الذي كان يقوده المؤرخ النازي فالتر فرانك. ودارت أحاديث عام 1940 حول تعيينه نائب رئيس جمعية الجغرافيين الألمان. وعندما نظمت في 18 أيار 1940، بعد عشرة أيام من حملة فرنسا، تظاهرة في قاعة جامعة برلين الصغيرة بمبادرة من «معهد الرايش لتاريخ ألمانيا الجديدة»، تحدث نيدرماير كخطيب رئيس عن «الجندية والعلم». ومع أن الحضور لم يكونوا من مسؤولي الصف الأول في الرايش الثالث، فقد حضر وزير الكنائس كيرل، وقائد عمل الرايش هيرل، ورئيس طلبة الرايش شيل، والمسؤول عن تأهيل مدارس النخبة النازية، وبعض الجنرالات، ومندوب عن وزارة الخارجية[8].

هل كان عالم القانون الدولي كارل شميت بين مستمعي نيدرماير يوم 18 أيار 1940؟. كان القانوني اللامع وكاتب مؤلفات قانونية وسياسية نظرية معترف بها دوليا رجلا رفيع الثقافة[9]، حلل بعقل بارد وفهم حاد الأسس الأيديولوجية للبرلمانية الغربية، واعتبر الديموقراطية وحقوق الإنسان نزعتين إيديولوجيتين كالاشتراكية ومسلمات العدالة الاجتماعية. كان شميت أحد أكثر مفكري ألمانيا السياسيين نفوذا في القرن العشرين، وقد كتب عام 1922 في

8. هيلموت هايبر: فالتر فرانك ومعهده لدراسة تاريخ ألمانيا الجديدة. ص 634.

9. من الصعب الإحاطة بالأدبيات المكرسة لكارل شميت. إلا أنه يجب الإشارة إلى دراسة مهمة أنجزها: إيريش فاد بعنوان: «الاستراتيجية والسياسة الأمنية. آفاق في مؤلفات كارل شميت، أوبلادن 1996.

«لاهوته السياسي»: «صاحب السيادة هو من يقرر حالة الطوارئ»، وأعلن «أن حالة الطوارئ أكثر أهمية من الحالة العادية، لأن ما هو عادي لا يثبت شيئا، بينما يثبت الطارئ كل شيء».

سحرت الدكتاتورية كارل شميت باعتبارها حالة طوارئ. وقد عرف انطلاقا من هذه الحالة «مفهوم السياسي»، والتفريق بين الصديق والعدو. وكما هو الأمر لدى المفكر العسكري القدوة في نظر نيدرماير، المنظر الاستراتيجي النمساوي جوستاف راتسنهوفر، كانت السياسة بالنسبة إلى شميت صراع وجود دائم. أبدى الكاثوليكي القطعي شميت الاحتقار تجاه البرجوازية الثقافية البروتستانتية الليبرالية، ورأى أن الخطابات التي لا نهاية لها، الصادرة عن الطبقة الوسطى المولعة بالنقاشات الدائمة، لا غرض لها غير تفادي اتخاذ القرارات وتحاشي حالة الطوارئ الخطيرة. كان كارل شميت ميكيافيليا، وقد حاول عام 1934 إبراز نفسه عبر تسويغ قانوني يبرر به قتل أعداء هتلر، لكن الاشتراكيين القوميين تخلوا عام 1935 عن رجل القانون الدولي، لشعورهم أن قصده كان السلطة لا الأيديولوجيا.

رأى نيدرماير، المعجب براتسنهوفر، في كارل شميت، الأستاذ في كلية الحقوق بجامعة برلين، فكراً تربطه به صلة قرابة. كان نيدرماير يستطيع الموافقة على ما كان يكتبه القانوني، وقد سبق أن كتب هو نفسه بعض الأفكار التي تشبه أفكاره، وكان يعتبر البرلمانية البرجوازية ضربا من الشذوذ، ورأى في التناقض بين الفكر القاري والبحري القوة الدافعة للتاريخ. بالنظر إلى نقاط التقائهما الكثيرة، لا يثير دهشتنا أنه قامت بينهما علاقة فكرية وشخصية. نظم «معهد السياسة والقانون الدولي في جامعة كيل» يوم عمل استمر من 29 آذار إلى 1 نيسان عام 1939، بمناسبة مرور 25 عاما على قيامه. ألقى شميت محاضرة عنوانها «القانون الدولي الخاص بنظم الفسحات الكبرى ومنع تدخل القوى الغريبة عنها»، وضع الأساس النظري القانوني والعلمي السياسي لعالم متعدد الأقطاب تتخلله مجالات كبرى عابرة للقومية.

وقد نشر نص محاضرته في نيسان من عام 1939 في سلسلة نشرات معهد كيل.

سمع نيدرماير عن محاضرة شميت، وأرسل له بعد ذلك مقالته «الجغرافيا العسكرية والسياسة العسكرية»، التي صاغ فيها أفكارا مشابهة لأفكار شميت، وفي الأول من تموز شكره أستاذ القانون، وأخبره أنه «قرأ للتو مقالته بأعظم قدر من الاهتمام»، ووجد لديه عددا من «الأفكار والصياغات الصائبة تماما». وهذا ما دفعه إلى إرسال نص محاضرته في كيل إليه، مع أنني ربما كنت لا أجرؤ أن آمل أن تجد هذا العمل القانوني الدولي الصرف لديكم الاهتمام نفسه الذي وجدته محاضرتكم الممتازة لدي». ثم واصل كلامه: «يجد القانون الدولي الألماني نفسه اليوم في وضع خاص، إن أراد تطوير أفكار جديدة تتجاوز موقع المحامي الصرف، فإذا ما قدر لمحاضرتي أن تثير اهتمامكم، فإنني سأشعر بسعادة خاصة جدا وسأتحدث عنها ذات يوم بسرور معكم».

كان شميت يعي البعد السياسي لموضوعه، الذي كان يطالب فيه بفسحة أوروبية كبيرة تحت قيادة ألمانية، على أن يعمل ضد الولايات المتحدة الأميركية: «رغم أن الصحافة الأجنبية لم تهتم كثيرا بها إلى الآن، فإن خطبة الفوهرر بتاريخ 28 نيسان 1939 تطالب أن يكون لنا نحن أيضا مبدأ مونرو». وتوقع أن تواجه آراؤه بالنقد في ألمانيا، لأن من يفكر بمقولات تتجاوز الدولة القومية، يجب عليه توقع المصاعب والجحود: «إنه لأمر صعب جدا للأسف أن نتغلب على النزوع إلى «المكانية الصغيرة» في تفكيرنا السياسي الخارجي والقانوني الدولي».

رد نيدرماير يوم 14 تموز 1939: «السيد الزميل العزيز جدا! قرأت باهتمام كبير نصكم الصغير الغني بالأفكار حول نظم الفسحات الكبرى القانونية، الذي أشكركم كثيرا على إرساله إلي، لأن أساتذة القانون الدولي

لا يفكرون للأسف إلا قليلا بهذه المسائل، التي تمس عن كثب الفسحة السياسية / العسكرية الاستراتيجية». ثم قدم لمحة عن عمله الخاص في هذا الموضوع: «اهتممت، حسب ما يسمح به وقتي، بأدبيات القانون الدولي الألمانية والفرنسية والإنجليزية المألوفة، ولامست قضايا القانون الدولي في محاضرتي التي أنهيتها للتو حول الحرب البحرية والجوية الحديثة، بقدر ما تراءى لي أن لها أهمية سياسية عسكرية».

عبر نيدرماير عن نفسه بتحفظ على عقيدة أكاديمية صرف حول المجالات الكبرى تحجب المصالح العسكرية والاقتصادية: «ليس التفكير بالمجالات الكبرى جديدا، وهو لعبة جغرافينا السياسيين القديمة، وتنقصه من جوانب كثيرة المكونات الاستراتيجية والاقتصادية العسكرية». ثم قام نيدرماير بخطوة أخرى قبل أسابيع قليلة من نشوب الحرب العالمية الثانية: «يجري الصراع من أجل مناطق المصالح السياسية والاقتصادية والاستراتيجية منذ وقت طويل، ولا بد أنت يحسم ذات مرة لصالح شرق ووسط أوروبا ألماني التعيّن. هذا ما تعرفه الأركان العامة أفضل من أي أحد آخر. لكنه من المؤسف أن الفوهرر لا يستطيع تقديم تعليل جيد لسياسته الذاهبة بقوة في هذا الاتجاه أمام الرأي العام، وإلا لفهم البعض سياساته بصورة أفضل ولدعموها».

تطورت في خريف عام 1939 علاقة شخصية أوثق طالت أيضا زوجتي الأستاذين. أحست زوجة نيدرماير، التي لم تنجب أطفالا، بميل شديد إلى أنيما، ابنة شميت، في حين كانت زوجة الأخير، الصربية الجميلة ذات الجاذبية الشرقية والمذهب الأورثوذكسي، شريك أحاديث مثيرة للاهتمام بالنسبة إلى نيدرماير. وفي أيلول من عام 1940 توسط لإقامة صلة بين شميت وبين شريكه في تأليف كتاب روسيا يوري سيمونوف، مؤلف الكتب الناجحة حول قضايا اقتصادية وبيئية عالمية، بينها كتاب «خيرات الأرض»، الذي عالج قضايا اقتصادية وبيئية كونية من منظور جغرافي، وأثار أيضا اهتمام شميت.

بدأ كل من شميت ونيدرماير يستشهد بالآخر، فذكر شميدت في مقالة

عنوانها «الفسحة والفسحة الكبيرة في القانون الدولي» نشرها عام 1940 في «مجلة القانون الدولي» الأبعاد العسكرية لفكرة الفسحة الكبيرة: «التي منها العمل الجغرافي العسكري الذي يقوم به العقيد أوسكار نيدرماير». كان شميت يريد تجاوز «مفهوم الفسحة الفارغة» وفهمه على طريقة نيدرماير باعتباره حجما ديناميكيا: «الفسحة الكبيرة مجال نشأ من ميول تطور شاملة راهنة للتخطيط البشري». أن مبادئ التنظيم المعاصرة والأنشطة الاقتصادية والسياسية والعسكرية يجب أن تساعد في التغلب على المكانية الصغيرة المعزولة للدولة القومية، وعلى التجريد البعيد عن النظام للنظم الكونية.

عرض شميت استنادا إلى نيدرماير أن فسحة أوروبية كبيرة مستقبلية يجب أن تكون، بوصفها مبدأ نظام قاري / بحري، في وضع يمكنها من استعراض القوة البرمائية أيضا: «إن السيطرة على المجال الجوي ليست بأي حال مجرد إشعاع للسيطرة على البلد أو البحر، الذي يقع الطيران فوقه، إن طريقة الحرب الراهنة لها في بعض البحار طابعا برمائيا، «وعلى المجال الكبير الأوروبي المقبل أن يبطل التناقض بين القوى القارية والبحرية، لأن البحر غدا مكانا مفتوحا أمام نشر قوة البشر وتوزيعها. ويمتلك المرء بصورة خاصة في الأحواض البحرية كبحر الشرق والشمال، والبحر المتوسط الوعي الجغرافي العسكري لما سماه نيدرماير الانكماش، خاصة إذا ما أخذ بعين الاعتبار السرعة المتزايدة للطائرات واستخدام سلاح الجو».

تأثر نيدرماير كثير بثقافة كارل شميت الكونية ولغته المؤثرة. وعندما ألقى يوم 9 كانون الأول عام 1940 محاضرة حذر فيها بقوة من التجاوز الاستراتيجي تحت ضغط بواعث سياسية واقتصادية وأيديولوجية، اقتبس مفاهيم القانوني الدولي وقال: إن أكثر أهداف السياسة الألمانية يجب أن يكون تثبيت بريطانيا العظمى في أوروبا[10]. وعلى ألمانيا أن تنتزع من

10. المحاضرة في تركة نيدرماير في أرشيف ميونيخ الحربي، رقم 2510.

الإمبراطورية البريطانية في ما وراء البحار «المواقع الأكثر أهمية من الناحية الاستراتيجية، وأن تضفي من جديد طابعا أوروبيا على جزيرتها». وكما هو الحال لدى شميت، رأى نيدرماير بدوره أن السياسة المستقبلية الكونية يجب أن تتعين ببديل هو إما هيمنة عالمية أنجلوساكسونية تستند إلى البحر، أو بتعددية مجالات كبرى ترتبط بالبر. أما وضع حدود داخلية متفق عليها للكتلة الأرضية الأوراسية، فهو شرط لا غنى عنه في نظر نيدرماير، الذي رأى للحرب هدفا هو نظام قانون وشعوب ودول يضمن السلم العالمي أكثر من «السلام البريطاني».

يوجد في تركة نيدرماير مسودات خرائط وضعها شتاء 1940 / 1941، رسم فيها النظام العالمي القادم، بينها خطط كبرى لرسم حدود داخلية في الكتلة الأرضية الأوراسية، حيث يجب أن تنشأ، فيما وراء الدول القومية، مناطق اقتصادية ونقدية في الشرق الأقصى ومنطقة البحر المتوسط والشرق الأدنى، وفي شمال ووسط أوروبا، صممت كي تتحول إلى مجال دستوري مشترك ووحدة سياسية عسكرية واحدة، على أن تكون «الشعوب الرئيسة» النواة السياسية للمجالات الكبرى.

دخل مساعد نيدرماير العلمي أرتور كون في التبادل الفكري بينه وبين شميت، وكان قد نشر عام 1941 دراسة جغرافية عسكرية حول «عقيدة مونرو»، أرسل نسخة منه إلى شميت وتلقى بالمقابل نسخة من كتاب الأخير «بر وبحر» مع كلمة إهداء شخصية[11].

برلين ـ موسكو ـ طوكيو

كتب كارل شميت يوم 2 كانون الثاني عام 1941 إلى أحد معارفه

11. أرتور كون: حول مفهم نصف الكرة الغربي. إسهام في الجغرافيا السياسية. مجلة الجمعية الجغرافية في برلين. العام 1941، ص 222 ـ 228.

القدماء، الكاتب إرنست يونجر[12] يقول: «أكتب اليوم بسرعة السبب التالي: سيسافر أحد معارفنا، العقيد الأستاذ الدكتور أوسكار نيدرماير (لورانس الألماني) إلى طوكيو يوم 25 كانون الثاني، وأود إعطاءه رسالة إلى السفير أوتو، لكنني أعتقد أن من المجدي أن يبلغه شخصيا الخطط والرغبات التي تحدثنا عنها أخيرا عندكم. ألا تستطيع الانضمام على عجل إلينا في برلين. إذا أتيت يوم 24، فإنك ستكون قد تأخرت كثيرا، ولن يكون باستطاعتنا الوصول إلى نيدرماير وإثارة اهتمامه».

لم يجد إرنست يونجر الوقت للقدوم إلى برلين قبل سفر نيدرماير، فغادر إلى اليابان دون أن يتمكن من الحديث إليه. لكنه التقى به صيف عام 1944 في باريس.

كتب نيدرماير تقريرا يفيض حياة حول سفره في القطار عبر روسيا، وإقامته الأولى في موسكو منذ عشرة أعوام. وأرسل بعد عودته «تخطيطاته الروسية» بلغة الاختزال إلى دائرة من المتلقين يصعب تحديدها[13]. كانت موسكو قد تغيرت كثيرا، وكانت المفارقات الهندسية ترسم صورتها: «طرق دائرية وطرق خروج مع بناية كبرى حديثة وقبيحة غالبا، أنصاف ناطحات سحاب لا معنى إطلاقا لبنائها في بلد أرضه رخيصة الثمن تفصلها أحياء بؤس متداعية ووسخة، وقطار تحت أرضي فخم مع عالم فوق أرضي شديد الفقر». لكن نيدرماير لاحظ في كل مكان، وخاصة على جوانب سكة الحديد التي تخترق سيبيريا، إنجازات صناعية مذهلة، «إلى جانبها الكثير من الكواليس البائسة».

كانت موسكو تتذكر تاريخها الروسي تحت حكم ستالين والراية

12. إرنست يونجر ـ كارل شميت: رسائل 1930 ـ 1983، إصدار وتعليق هيلموت كيزل، شتوتجارت 1999، ص 112.

13. تركة نيدرماير في الأرشيف الاتحادي ـ الأرشيف العسكري، رقم 122/ 9.

الوطنية السوفييتية. وقد أخبر السفير الأمير فون شولنبورج نيدرماير عن مصير المصلح المسرحي العظيم مايرهولد الذي عرض مسرحية ساخرة، أضحكت الجمهور من آلهة سلافيين وأبطال روسيين، إلا أن المسرحية اختفت بعد عرضها الثاني عن المنصة، ولم ير أحد بعد ذاك مايرهولد، بينما تحول مبنى مسرحه إلى قاعة موسيقية. قالت الرواية الرسمية إن مايرهولد وفرقته شتموا آلهة السلاف وأبطال الروس، وأهانوا بذلك الشعور القومي للشعب الروسي.

تركت مسرحية «المارشال كوتوزوف»، التي كانت تعرض في مسرح فاختانجوف الحديث البناء، انطباعا طيبا لدى نيدرماير بما حفلت به من تلميحات إلى الحاضر. كانت الأشعار الكلاسيكية تمجد اتساع روسيا الذي لا حدود له، وقدرتها على الاحتمال والألم، في حين وحد النضال ضد نابليون الشعب والجيش، وقاتل ضباط نبلاء متنكرون وفلاحون فقراء جنبا إلى جنب كأنصار ضد الغزاة. ورفض المارشال كوتوزوف، سلف ستالين الذي يرتدي ثيابا تشبه ثيابه، عروض الديبلوماسيين البريطانيين، التي أرادت إغراء روسيا بالقتال خارج حدودها ضد نابليون. كما تأثر نيدرماير بعمق بالعرض العلني للطبيعة والتدين الروسيين في موسكو البلشفية: «عندما أبلغ كوتوزوف في ريازان بفرار الفرنسيين من موسكو، تقدم بصورة احتفالية من مقدمة المنصة ورسم شارة الصليب على وجهه دون أن ينبس بكلمة، لينتهي بذلك المشهد المهيب».

كان الاتحاد السوفييتي قد تغير بوضوح ظاهر من الناحيتين الفكرية والاجتماعية. وكان التعارض الظاهر في صورة مدينة موسكو يتفق والهوة بين السكان العاديين والنخبة السوفييتية الجديدة صاحبة الامتيازات. وقد لاحظ نيدرماير في محطة قطار سفردلوفسك كيف دفع روسي 700 روبل ثمنا لساعة يد ربما كانت تساوي عشر ماركات في ألمانيا. وتحدث مع جنرال كان يشاركه عربة القطار عن الرواتب والأسعار في الاتحاد السوفييتي: «لقد حكى

لي عن الأجور المرتفعة، عن راتبي الشهري الذي يبلغ 2400 روبل بينما لا تتعدى أجرة شقته المفروشة مائة وخمسين روبلا في الشهر، وقال باعتزاز: إنه يوجد من جديد في روسيا عدد من أصحاب الملايين، وأن أفضل الناس أجرا هم ممثلو السينما».

وكان قد تغير أيضا ملاك السفارة الألمانية في موسكو. صحيح أن السفير فون شولنبرج ومعاونيه المقربين مثل الجنرال كوسترينج والديبلوماسي الشاب هانس فون هيرفات كانوا معارف قدماء، فقد تعرف نيدرماير هيرفات وزوجته قبل قليل من سفرهما إلى موسكو عام 1931. وكان هؤلاء الديبلوماسيون على علاقة طيبة مع الأصدقاء الروس، يشعرون بالالتزام تجاه تقاليد طويلة وطيبة من التعاون الروسي / الألماني، رغم ما كان من جفاء بينهم وبين نظام ستالين. لكن نيدرماير تعرف عند السفير على «القنصل»، «من وزارة الخارجية»، ربما كان الرجل المختص بقضايا الهجرة، الذي تنتهي «التخطيطات الروسية» نهاية سوداء بوصفه.

أسمى نيدرماير القنصل و «بسخرية» السياسي الألماني. أما سحباته الفكرية، التي يبدي نيدرماير حيالها الازدراء، فتتطابق حرفيا مع مقاطع من كتاب «كفاحي» لهتلر: «تحتاج ألمانيا بفيض سكانها إلى مجال لا تقدر أن تجده في غير أوكرانيا، التي يجب أن يرحل عشرة إلى عشرين مليونا من سكانها إلى روسيا الآسيوية، على أن توضع سيبيريا أيضا تحت رقابة سياسية ألمانية. وقد رفض اعتراضي بأننا لم نستطع حتى اليوم استقدام ثلاثة ملايين ألماني إلى بوزان، للحلول محل ملايين البولونيين الثلاثة الذين رحلوا منها، وأننا لم نعد نعيش في عصر جنكيزخان، وأن لدينا فائضا سكانيا مدينيا وصناعيا وليس لدينا فائض سكان ريفي». كما لم يسمع القنصل، بجهود الحكومة الروسية الكبرى لنقل السكان إلى أماكن عيش جديدة بين عامي 1900 و1912، ولم يدر بنتائجها المشكوك فيها. وقد أقلق وجوده في موسكو كما أقلقت تصريحاته نيدرماير كثيرا.

كانت خطط الاحتلال والطرد والتهجير في منطقة الاتحاد السوفييتي تتعارض أشد التعارض مع الأفكار، التي عرضها نيدرماير يوم 19 شباط 1941 في طوكيو أمام دائرة مصطفاة من المستمعين الألمان واليابانيين. كان عنوان موضوعه، الذي خضع لصياغة علمية غير موفقة، هو «المجال السياسي العسكري الكبير في أوروبا وآسيا مع اهتمام خاص للمناطق السوفييتية الواقعة بين روسيا واليابان». وقد قدم نيدرماير، استنادا إلى نظرية كارل شميت في القانون الدولي، صورة عن نظام دولي متعدد الأقطاب، ونظام عالمي تعددي، لأن مستقبل العالم لا بد أن يتعين من قبل مجالات كبرى ذات طابع سياسي وثقافي واجتماعي متنوع، وأن يقتصر نفوذ الولايات المتحدة على نصف الكرة الغربي، حيث ستستخدم دورها السياسي والقيادي وقوتها الاقتصادية من أجل تطوير جنوب أميركا. بينما يجب أن تعمل ألمانيا واليابان وروسيا السوفييتية وإيطاليا بطريقة واحدة كدول قائدة سياسيا واقتصاديا وعسكريا للمجال الكبير المنظم فيما يتجاوز السيادة التقليدية للدول القومية. وعرض نيدرماير على سامعيه تخطيطات لخرائط تبين كيف يتصور تقسيم العالم إلى مجالات كبرى.

في الوقت نفسه، حذر نيدرماير من التوسيع السياسي والعسكري المبالغ فيه للقوة الخاصة بكل دولة. وقال إن نظامه العالمي المتعدد الأقطاب يفرض على كل دولة كبرى احترام التبعية المتبادلة للمكان والزمان والقوى: «إن دولة حسنة القيادة، يعرف قادتها السياسيون والعسكريون كيف يقرؤون في كتاب التاريخ وكيف يعدون أنفسهم للأشياء القادمة، ستتجنب التطلع إلى احتلال الأراضي وامتلاكها، لأن القوى التي بحوزته لن تتمكن في حالة الحرب أو نشوء وضع دولي غير ملائم من الاحتفاظ بها على الأرجح». وذكّر بحملات نابليون الحربية، وقال إن فشل الدكتاتور الفرنسي يجب أن يكون تحذيرا لكل رجل دولة عاقل: «إن دولة يحكمها العقل ستتفادى قبل كل شيء الابتعاد كثيرا عن قاعدتها الأصلية».

هل كان نيدرماير يعرف في تلك اللحظة بالاستعدادات السرية لـ «خطة بربروسا»؟. هل تحدث في طوكيو مع ريتشارد زورجه أيضا، جاسوس ستالين وسمير السفير الألماني؟. لا تقدم الوثائق أية معلومات حول هذين السؤالين، مع أن لقاء نيدرماير وزورجه كان محتملا جدا، لان زورجه عمل منذ نهاية العشرينات في خدمة الاستخبارات السوفييتية، وكان مراسل «الفرانكفورتر تسايتونج» في موسكو والصين، وقاد الاستخبارات السوفييتية في اليابان من 1935 وحتى 1941، واعتبر رجلا محافظا وكان على صلات ممتازة مع السفارة الألمانية.

ليس واضحا ما إذا كانت المهام السياسية أو الاستخبارية هي التي قادت نيدرماير إلى طوكيو عبر موسكو. وربما كان قدوم الياباني يوسيميتي كوبوا إلى برلين إحدى ثمرات زيارة نيدرماير إلى طوكيو[14]. وصل كوبوا، مستشار وزير الخارجية الياباني نهاية آذار 1941 إلى برلين والتقى يوم 4 أيار مع هتلر وريبنتروب في برلين، وكتب يوم 24 نيسان 1941، قبل شهرين من الهجوم على الاتحاد السوفييتي، إلى كارل شميت يقول: «لدي اهتمام كبير بالقانون الدولي في المجال الكبير، الذي تمثلونه، وقد بحثت كثيرا في هذا الموضوع، ولدي الاقتناع أن الحلف الثلاثي تعبير عن القانون الدولي في المجال الكبير ويمثل السياسة الدولية المستقبلية». ثم التقط الياباني أفكار شميت، التي عرضها نيدرماير يوم 19 شباط في طوكيو، وتدعو إلى دخول الاتحاد السوفييتي في الحلف الأوراسي الكبير، وأضاف: «أن معاهدة الحياد اليابانية / الروسية، التي تم عقدها قبل فترة قصيرة، هي شرط تطبيق القانون الدولي في المجال الكبير. وقد شرحت لوزير الخارجية في برلمان اليابان الإمبراطوري أن علينا عقد معاهدة صداقة مع روسيا، استنادا إلى مفهوم القانون الدولي الذي يتبناه السيد كارل شميت»، ثم قال الياباني: «لتحقيق

14. انظر كارل شميت: الدولة المجال الكبير، ص 367.

القانون الدولي في المجال الكبير، سيكون على وزير خارجيتنا ماتسووكا القدوم إلى أوروبا لإقامة صلات مباشرة مع قادة ألمانيا وإيطاليا وروسيا». وأمل الياباني أن يتلقى إشارات من كارل شميت حول سبل التكوين القانوني للمجال الآسيوي الكبير المقبل تحت قيادة يابانية.

ولكن، بينما كان نصير شميت الياباني يحلم في برلين بالمجال الآسيوي الكبير والتحالف الأوراسي، كانت الاستعدادات للهجوم على الاتحاد السوفييتي توشك أن تبلغ طورها الختامي. ليس معروفا بعد متى علم نيدرماير بهذه الخطط، بصفته عقيدا في القيادة العليا للقوات المسلحة وخبيرا ممتازا في الشؤون الروسية، وإن كان مؤكدا أن نفوره ازداد وضوحا قبل الهجوم على الاتحاد السوفييتي تجاه تصورات المجال الكبير وتقاليد جغرافيا راتسيل السياسية البيولوجية التوجهات، حتى أنه ذهب في النهاية إلى حد جعله يقوم بنقد حاد ملئ بالمرارة لعمل صديقه هاوسهوفر الإعلامي وتأثيره العلمي، وكتب يوم 20 آذار 1941 مراجعة لكتابه «الجغرافيا السياسية العسكرية»، وإن كان لم ينشرها أبدا، أنكر فيها أن يكون ثمة أية قيمة علمية لجغرافيا صديقه السياسية[15].

تحولت جغرافيا هاوسهوفر السياسية في آذار 1941 إلى «أداة صراع سياسي» في نظر نيدرماير، يساء تفسيرها واستعمالها من أجل أغراض دعائية. بتطوير اعتمادها على راتسيل، بدت نظرية هاوسهوفر في عيني نيدرماير مقلّدة ومشكوكا في منهجيتها: «لقد اختصر كتابات راتسيل الجغرافية السياسية بما يتفق مع حاجاته، وأصدر مؤلفات كيللنز موسعة». كان نيدرماير يقدر صديقه كشخصية مثقفة ومتعلمة تمتلك قدرة الفنان الخلاقة، إلا أن تأثيره أدى إلى نتائج ملتبسة إلى أبعد حد في حقل التوتر الخطير بين الفكر والعنف. كان هاوسهوفر «واسع الخيال فنيا»، لكن الأمر كان يصير خطيرا

15. تركة نيدرماير في الارشيف البافاري ـ الارشيف العسكري، رقم ن ل 122/ 9.

عندما يبدأ الآخرون العمل كفنانين جغرافيين سياسيين. في الوقت نفسه يحذر نيدرماير: «إن الفكر الخاص به وحده هو ما يصنع نظريته، التي لم يقم حتى الآن أي نظام علمي صارم لها، ويستطيع أيضا التخلي عنها، لأنها كانت بمنظور عام فعلا سياسيا. سيكون الأمر أكثر صعوبة بالنسبة إلى مقلديه، الذين سيرغبون في تحويل جغرافيته السياسية إلى نظرية توجه الشباب الألمان والقادة السياسيين والعسكريين الذين سينبثقون منهم ذات يوم. وهنا تبدأ مشكلة جغرافيته السياسية: «طور هاوسهوفر الحساس وصاحب الموهبة الشعرية عالمه المفهومي الخاص، المتفق مع أسلوب الشباب اللاحق في ميونيخ: «هكذا تنشأ مراحله وسياساته الفكرية الملتوية، التي ليس من السهل دوما فهمها، وتجعل قراءة أدبياته صعبة». لذلك كان لجغرافيته السياسية في نظر نيدرماير غواية «صورة مضيئة كثيرة الألوان، لكن ألوانها الرئيسة لا تبقى عالقة في الذهن بعد الانتهاء من النظر إليها».

وافق نيدرماير على قول هاوسوفر: «يجب أن يكون للعلم السياسي الحق والشجاعة، لإصدار التحذيرات واستباق الأخطاء، ولقيادة السياسة العملية من أرض صلبة». لكن «إعلان المصير» ليس كما يبدو لي مهمة العلم الدقيق. يميل هاوسهوفر في تقدير نيدرماير إلى عدم قياس التصورات المتعلقة بالأهداف السياسية بالواقع، ولم يدرك بدقة التطور الديناميكي للتقنية العسكرية الحديثة، وخاصة بالنسبة إلى سلاح الجو والمكننة. كما أن ثباته على ثوابت جغرافية عتم قبل كل شيء على عنصر المكان، وحجب المعرفة التي وضع كلاوزيفيتز يده عليها، وهي ضرورة السيطرة على الأوضاع السياسية والاستراتيجية الجديدة كليا وغير المتوقعة: «هنا يفترق رأيه افتراقا جذريا عن رأيي، الذي يجعل وجهات النظر العسكرية حاسمة بالمقارنة مع وجهات النظر الجغرافية في كل ما يتعلق بالتأملات الجغرافية العسكرية، وينكر أن يكون هناك قيمة وضع عسكرية أو سياسية عسكرية مطلقة للمكانية الجغرافية، كما يقول هاوسهوفر في تناقض مع تأكيده المتكرر على التبدل

الدائم لقيمة الوضع. لذلك، تعتبر الأقسام الجوهرية من جغرافيته السياسية العسكرية جغرافيا سياسية واستراتيجية».

غير أن نيدرماير، كهاوسهوفر، غير مرن طيلة حياته في نقطة محددة هي أن التناقض الجدلي بين السياسة المرتبطة بالبحر وتلك المرتبطة بالبر، وبين هيمنة البحارة الأنجلوساكسون العالمية وتعددية فكرة المجال الأوراسي المحكومتان بالمصالح، يعين في رأيه الصراع من أجل النظام العالمي الجديد. لذلك كان إنجاز هاوسهوفر الأكبر تنبيه الرأي العام الألماني إلى الحافر الأكثر أهمية للجغرافيا السياسية، وهو «التناقض البحري ـ القاري، والعلم العسكري البحري لدى الأنجلوساكسون». لقد ساعد هاوسهوفر كإعلامي «بطريقته الفريدة في وعي مصير الشعب الألماني على إعداد الأسلحة الفكرية التي يحتاج إليها في صراعه العملاق مع القوة البحرية الأعظم».

لكن تكوين المفاهيم غير الدقيقة لدى هاوسهوفر جعل أتباعه وتلامذته يفتقرون إلى نقاط ارتكاز وارتباط أكيدة. من هنا، كان ممكنا استخدام نظريته في حالة الحرب كسلاح أيديولوجي ليس فقط ضد الإمبراطورية البريطانية، بل كذلك ضد الاتحاد السوفييتي، كما كان ممكنا استخدامها كدفاع عن تحالف محتمل مع إنجلترا، وهذا ما فعله رودلف هيس، تلميذه الأكثر قربا منه[16]. يتذكر السياسي النازي ألبرت كريبس الأسابيع التي سبقت طيران هيس نحو إنجلترا، للتوسط في الاتفاق مع البريطانيين، الذي سعى إليه هتلر، قبل انقضاضه على الاتحاد السوفييتي: «وكان قد حصل على مستندات عبر توسط الجغرافي السياسي هاوسهوفر، بينت نصوصها، التي تصف عملية

16. ألبرت كريبس: ميول وتكوينات الحزب الاشتراكي القومي. ذكريات عن الفترة المبكرة من حياة الحزب (نشرات معهد التاريخ المعاصر، الجزء السادس، شتوتجارت 1959، ص 1 ـ 29.

تصنيع بادئة وراء الأورال، وعملية تكثيف للخطوط الحديدية السوفييتية شرق موسكو، بل وعملية تعزيز وتوطيد متعاظمة للنظام البلشفي، أن القدرة القتالية الروسية أكبر بكثير مما أراد هتلر تصديقه». هل أرسل هاوسهوفر إلى صديقه «ملاحظات نيدرماير الروسية» وأعماله الجغرافية العسكرية؟. في هذه الحالة، ما كانت المستندات ستصلح كتحذير من هجوم على الاتحاد السوفياتي، بل ستكون حافزا يدفع إلى محاولة الوصول إلى ترتيب مع البريطانيين: «اقتنع هيس أن حربا مع السوفييت ستكون صراع حياة وموت. لذلك يجب تسوية الأمور في الغرب، ويجب أن تأتي المبادرة إلى ذلك من ألمانيا». لذلك طار هيس يوم 10 أيار عام 1941 بمفرده فوق بحر الشمال نحو اسكتلندا ووقع في أسر سيدوم مدى الحياة.

تحذيرات مشفرة

حذر نيدرماير بصورة متكررة من الاستهانة بالجيش الأحمر. وكانت مجلة «جمعية برلين الجغرافية» المرموقة قد طبعت عام الحرب ـ 1940 ـ مقالته «الجغرافيا العسكرية في مثال روسيا السوفييتية»، الذي أظهرت ملاحظاته التمهيدية كم كان قد ابتعد عن جغرافيا هاوسهوفر السياسية، واقترب من التفكير الاستراتيجي الكلاسيكي المستند إلى تقاليد كلاوزيفتز[17]. وكان نيدرماير يعتقد أنه لا توجد معايير عامة صالحة في الجغرافيا السياسية والاستراتيجية، وأن الجيوسياسيين، الذين يصوغون قوانين علمية طبيعية مزعومة يرتكبون خطأ منهجيا جسيما. كما تبرأ بصورة معلنة من أفكار راتسيل «التي تتبدد كما يتبدد الرمل بين الأصابع»، مع أنه كثيرا ما جرى الاحتفاء براتسيل بوصفه سلف هتلر الفكري والمفكر الذي بشر به. لكن نيدرماير كتب بعد تحالف ستالين ـ هتلر بسلطة العالم الذي رأى قناعته تتأكد من خلال قرار تاريخي على أعظم قدر من الخطورة. وبدا له عام 1940 أن

17. مجلة جمعية برلين الجغرافية، عام 1940، ص 1 ـ 29.

صراعه مع خصومه الأيديولوجيين صار أكثر سهولة : «لكنكم ستقولون لي أن سياستنا الحربية تجاه روسيا على سبيل المثال ليست مفهومة إطلاقا من وجهة نظر عقائدية، وهذا صحيح، لكنها مفهومة من وجهة نظر سياسية عسكرية».

بدا الانتصار في بولونيا وكأنه يسوغ سياسة جيش الرايش في العشرينات. كان معلمو نيدرماير في صعود، فأمكن عام 1940 إعادة نشر دراسة فون سيكت الصغيرة، التي عنوانها «ألمانيا بين الشرق والغرب»، وأصدر فون هوتشس كتابه عن كاترينا الثانية. وعندما احتفت الدعاية النازية بسياسة بسمارك الواقعية، وذكرت بتقاليد أخوة السلاح البروسية / الروسية، رأى نيدرماير في ذلك انسجاما بين اقتناعه الشخصي والسياسة الخارجية النازية، وكتب يقول: «جعلت الحاجة والمصالح المشتركة ألمانيا وروسيا السوفياتية تلتقيان مرة أخرى في ساعة حاسمة من تاريخ أوروبا، وسهلت تجاوز العقبات العقائدية». في هذه الأثناء، لم يترك نيدرماير بطريقة تثير الدهشة أي شك حول الجهة التي جعلها مسؤولة عن العلاقات الألمانية السوفييتية السيئة قبل تحالف هتلر / ستالين: «دأب المرء في الماضي على رؤية العلاقات الألمانية السوفييتية من وجهة نظر عقائدية اشتراكية قومية، وضعت الدولة السوفييتية خارج مجتمع القانون الدولي». إن الصعوبات السياسية والديبلوماسية لم تنطلق من موسكو خلال السنوات الأخيرة: «فالسياسة الروسية السوفييتية، التي تبعت في الداخل عقائد متحجرة، أبدت في الخارج مرونة تستحق الاهتمام».

أظهر تحليل نيدرماير لقارئ حالة المصالح السوفييتية لماذا قبل ستالين تحديد مناطق النفوذ الألمانية والسوفييتية في شرق أوروبا: فالاتحاد السوفييتي كان يلعب الآن دور الضاحك الثالث الذي يثير الحسد، لأن حال ستالين شهد تحسنا جذريا بعد الاتفاق مع هتلر، الذي جعل الإمبراطورية السوفييتية العملاقة عصية على الهجوم في الشمال والجنوب،

ولم يكن من حاجة في الشرق إلا إلى تأمين حماية عسكرية لمنطقة الساحل الواقعة بين فلاديفوستوك ومصب الآمور، وكذلك لقوس نهر الآمور نفسه، رغم الوجود العسكري الياباني في منشوريا. وصار بوسع موسكو التركيز في المستقبل كليا على الجبهة الاستراتيجية الرئيسة المفتوحة نحو أوروبا، مع أنها تمكنت بعد الاتفاق مع هتلر من دفع حدودها العسكرية 400 كيلومتر إلى الأمام، حتى أن لينينجراد لم تكن يوما منذ اتفاق بريست ليتوفسك آمنة كما كانت عام 1940.

إن اتساع المجال، والمناخ وقبل كل شيء مرحلة الوحل في الخريف ومطلع العام كانت جميعها عناصر تحبذ نزعة روسيا إلى الأخذ باستراتيجية دفاعية. لم تعرف البلاد على وجه التقريب طرق المواصلات الحديثة، التي تخترق المجال وتتقاطع فيه وتجعله سالكا في جميع الأحوال الجوية، بينما كان المهاجمون المحتملون يجدون أنفسهم في مواجهة عوائق طبيعية ضخمة: «وعلى سبيل المثال فإنه لم يكن هناك على الفولغا غير خمسة جسور تؤمن المواصلات من الشرق باتجاه الغرب وبالعكس، كان بينهما اثنان فقط مزدوجي المسار. كما لم يكن هناك أي جسر على طول ألف كيلومتر من المجرى الأدنى للنهر».

لم يكن الناس في الاتحاد السوفييتي «ما دون بشر» في نظر نيدرماير، الذي رأى عام 1940 في الجيش الأحمر جيشا منظما وقادرا على القتال: «عموما، يجب أن نعتبر الجندي الروسي عدوا شديد المراس وقادرا على المقاومة. ولا يجوز الاعتقاد أن انضباطه وروحه المعنوية منخفضان». ومع أن مستوى تدريب الجيش الأحمر قد تراجع كثيرا بسبب تصفية ضباطه القياديين على يد ستالين، فإن وسطي مستوى تدريب الجندي وصف الضابط كان الآن أعلى منه في السابق. كما أعتقد أن العلوم الطبيعية والهندسة العلوم الإنسانية، بعد أن اندثرت الإنتلجنسيا الروسية القديمة في الحرب والثورة والحرب الأهلية. كان تعليل نيدرماير للتطور متفقا من جهة مع خط الحزب

النازي الرسمي، ومستندا من جهة أخرى على تجربته الشخصية مع قادة بلاشفة مثل راديك وتروتسكي وسواهما: «حيث استولى اليهود على هذه المواقع الفارغة».

انتهت صورة نيدرماير برؤيا لافتة: فقد رأى أمامه صورة طائرة وقد بقيت عالقة في الوحل الروسي. ترى، من كان يريد عام 1940 أن يجوب عبر الأرض الروسية غير السالكة بالسيارة؟. من كانت تحذر الرؤيا التي أنهى نيدرماير بها «جغرافيته العسكرية المطبقة على مثال روسيا السوفييتية؟. «كان مفكر من أيامنا يقف وحيدا ومنعزلا بين مشاهدي هذه المسرحية الشتوية، يحاول إقامة صلة بين طيران الفكر الشاعري والواقع القاسي، بينما تتراءى أمام عين خياله صورة ـ مجرد صورة ـ سيارة غارقة في وحل روسيا: لقد كان سياسيا متخصصا في الشؤون العسكرية».

خطط شرقية

عندما انهارت مقاومة بولونيا العسكرية في نهاية أيلول من عام 1939، توجه نيدرماير من جديد إلى منطقته المحببة. وأنهى في 3 تشرين الثاني عام 1939 دراسة حول «السياسة والحرب في الشرق الأدنى»[18]، حذر فيها القيادة العليا للقوات المسلحة من وهم أن تقسيم بولونيا واستعادة مناطق الرايش التي ضاعت عام 1914 يمكن أن تسهّل تقييد الحرب زمانيا ومكانيا، لأن بريطانيا العظمى ترى «منذ البداية في الحرب فعلا موجها ضد سيطرتها العالمية»، فإذا ما أرادت القيادة الألمانية من جانبها خوض الحرب بصفتها نزالا كونيا، كان عليها رؤية الخيارات الاستراتيجية خارج أوروبا أيضا، ومنها: «تهديد أو مهاجمة المواقع البريطانية في آسيا الدنيا والهند».

18. انظر هانس تيلمان: سياسة ألمانيا العربية في الحرب العالمية الثانية. برلين (الشرقية) 1965 (سلسلة كتب معهد التاريخ العام في جامعة مارتن لوثر في هاله فيرتنبرج) ص 102 ـ 106.

لكن الرايش الثالث كان حسب تقدير نيدرماير غير مستعد سياسيا واقتصاديا لخوض عمليات تشمل مجال الشرق. لذلك أوصى قيادة القوات المسلحة العليا أن تكتفي بتخطيط «مناورات إزعاج وخداع محكمة الحبك»، ويجب إجبار لندن على إنهاء الحرب من خلال التهديد التضليلي لمواقع سيطرتها في الشرقين الأدنى والأوسط. هكذا، لم يقترح نيدرماير إذن أي شيء آخر غير القيام بـ«خدعة» استراتيجية كبرى.

لم ينتظر نيدرماير غير مجرد هدنة، حتى إذا ما نجحت الخدعة وقبلها البريطانيون، «سيتسلح خلالها الجانبان من أجل خوض صراع حاسم». لهذا السبب أوصى قيادة القوات المسلحة أن توجه أنظارها نحو البحر المتوسط والبحر الأحمر والخليج والمحيط الهندي. وقد كررت حجاجه بصورة حرفية تقريبا التوصية التي كتبها عام 1920 بعد مؤتمر باكو من أجل سيكت. إن ضربة كبرى في الشرق الأدنى والأوسط يمكن أن تجبر بريطانيا العظمى على الركوع: «لأن نقطة ثقل الدفاع في الهند انتقلت اليوم إلى الشرق الأوسط». ويمكن انطلاقا من القوقاز شن الضربة الاستراتيجية الرئيسة ضد منطقة الموصل وحقول النفط العراقية، المراقبة من قبل البريطانيين، ثم يمكن الانطلاق من شمال العراق لاقتحام المواقع الفرنسية والبريطانية في الشرق، دون كبير عناء. وكما في عام 1918، كان نيدرماير يأمل في خريف عام 1938 أيضا أن لا تضيق القيادة السوفييتية ذرعا بالعمليات الألمانية.

بعد عشرة أيام، في 13 تشرين الثاني عام 1939، رجت قيادة القوات المسلحة العليا وزارة الخارجية إبداء رأيها في الأمر. وكان السفير في موسكو الأمير فون شولنبرج قد تلقى في اليوم ذاته توجيها بالحديث دون إبطاء مع مفوض الشعب السوفييتي للشؤون الخارجية، وإخبار الخارجية الألمانية بالنتائج، فأبلغ هذا بعد خمسة أيام عن المجريات غير السارة لمحادثاته، التي ناقشت تفصيليا مع الشركاء السوفييت تمركز الوحدات العسكرية الفرنسية والبريطانية في سوريا ومصر، وألمح خلالها شولدنبرج إلى

خطط للقيام بعمليات ضد الهند انطلاقا من التيبت وأفغانستان. لكن الشركاء السوفييت تصرفوا بحذر وترقب، ووافقوا في النهاية على إبلاغ قيادتهم السياسية بالموضوع.

لم تتلق وزارة الخارجية وحدها مذكرة نيدرماير «السياسة والحرب في الشرق الأدنى» من قيادة القوات المسلحة العليا، بل تلقاها كذلك مكتب السياسة الخارجية في الحزب النازي، الذي أشار بصراحة يوم 12 كانون الأول عام 1939 في إحدى الملاحظات إلى مذكرة نيدرماير[19]. وقد سجل مساعدو روزنبرج، الذين حاروا في الأمر وملأتهم الشكوك حوله أن الدائرة القليلة من الأشخاص، المهتمة باستراتيجية ألمانيا الشرقية، منقسمة بقوة على نفسها، وأن الشقاق والدسائس بين وفي مواقع الحكومة والحزب القيادية هي التي تحدد صورة الوضع، حتى أن اقتراح نيدرماير حول التقدم من القوقاز إلى شمال العراق وجد في مواجهته خطة مغامرة: «حسب أنباء مؤكدة وسرية، قررت وزارة الخارجية بالاتفاق مع شعبة مكافحة التجسس التابعة للأميرال كاناريس، العمل من حيث المبدأ ضد الهند انطلاقا من أفغانستان بعد إسقاط حكومتها الراهنة وتنصيب أمان الله، بالتعاون مع روسيا السوفييتية».

يرجع مخطط أمان الله إلى أوتو فون هانتيج، منافس نيدرماير القديم، الذي كان يدير شعبة الشرق في وزارة الخارجية، وإلى جانبه مسؤول العراق والعربية السعودية دكتور فريتز جروبا، وكان بدوره خبيرا في شؤون الشرق وأفغانستان أمضى العشرينات كسفير ألماني في كابول، وعارض بشدة فكرة هانتيج إعادة أمان الله من المنفى في روما إلى بلاده، ونصح عوض ذلك

19. أرشيف الدولة الرئيس، شتوتجارت، الوثيقة رقم 449، ص 413 ـ 415: مذكرة مكتب السياسة الخارجية بتاريخ 12 كانون الأول 1939 حيال سياسة ألمانيا الأفغانية خلال الحرب العالمية الثانية.

التعاون مع الحكومة الأفغانية القائمة، التي يجب دفعها إلى احتلال المناطق الخاضعة للرقابة البريطانية حتى نهر الهندوس، بمساعدة ألمانية سوفييتية، بما أن بشتون كثيرون يعيشون في هذه المنطقة وفي مملكة أفغانستان ذاتها. في الوقت ذاته، كان على الحكومة السوفييتية أن تطمئن الأفغان، وتعلن تصميمها على الاستمرار في احترام استقلال بلادهم.

بيد أن أنصار خطة أمان الله من جماعة هانتيج فرضوا وجهة نظرهم في وزارة الخارجية. وقد لاحظ جماعة روزنبرج منتقدين: «في جلسة عقدت مؤخرا لفت الأنظار أن د. جروبا لم يدع إليها، انتصرت وجهة نظر المبعوث فون هانتيج، القائلة بإزاحة الحكومة الأفغانية الراهنة من خلال مؤامرات وانتفاضات تستهدف إعادة أمان الله إلى الحكم. وقد تبنى هانتيج دوما وجهة نظر ترى أن حكومة أفغانستان الحالية عميلة لإنجلترا، وتفتقر إلى أي فهم لنجاح ألمانيا في التغلغل في ذلك البلد خلال السنوات الأخيرة».

كانت عواطف مكتب السياسة الخارجية في الحزب إلى جانب نيدرماير وجروبا: «حتى لو كان صحيحا الافتراض بأن حكومة أفغانستان الحالية عميلة لإنجلترا، فإنه لا يوجد بادئ ذي بدء أي أساس للعمل المطلوب القيام به مع أمان الله، بسبب عدم وجود أعمال تمهيدية عسكرية استراتيجية وشخصية جدية ترتكز على اختبارات دقيقة وشاملة، أجريت طيلة شهور (تابع شروح العقيد نيدرماير في «سياسة وحرب في الشرق الأدنى»).

يبدو أن مكتب السياسة الخارجية في الحزب أبدى قدرا من الثقة بخبر نيدرماير أكثر مما كان يثق بهانتيج، لذلك اعتبر منفذ خطة أمان الله، السياسي الأفغاني المرموق غلام صديق، وزير خارجية أمان الله السابق، غير ملائم. وقال المكتب إن الساسة الأفغان الذين يعيشون في ألمانيا رفضوا بدورهم غلام صديق، وخلص إلى القول أن انقلابا في كابول لا يحقق أهداف ألمانيا: «تبنى د. جروبا بحق وجهة نظر ترى أن مثل هذه العملية لن

تفضي إلى شيء غير حرب أهلية في أفغانستان، ستكون منافعها بالنسبة إلى الإنجليز أكبر من مضارها، لكنها ستدمر مكانة ألمانيا هناك». مع ذلك، يبدو أن ديبلوماسيي وزارة الخارجية كانوا قد رسموا الخطوة التالية في اتجاه موسكو «وقرروا إلى هذا إرسال غلام صديق بصحبة الرفيق كلايست من مكتب الوزير ريبنتروب إلى موسكو بهدف الوصول إلى اتفاق نهائي مع روسيا السوفييتية».

حاول السفير فون شولنبرج من جديد يوم 25 كانون الثاني 1940 تحسس المواقف السوفييتية، فرد شركاؤه في الأحاديث من جديد ببرودة وتحفظ. صحيح أن موسكو عززت تدابيرها الأمنية العسكرية في القوقاز على أرضية خطط ميدانية فرنسية / بريطانية ضد باكو، دون أن توافق بأي حال على إجراء هجومي مشترك ضد الموصل، أو تغض الطرف عن عمليات ألمانية في القوقاز. كان هدف ستالين القريب الأكثر أهمية هو إخضاع منطقة النفوذ التي حصل عليها عبر اتفاقه مع هتلر في جنوب شرق أوروبا بالسرعة الممكنة، فلم تستطع برلين توقع أي دعم يقدمه لها في الشرقين الأدنى والأوسط[20].

عندما تحسنت في حزيران عام 1940 وضع الرايش الألماني العسكري والسياسي تحسنا ملموسا، قام نيدرماير بمحاولة أخرى للفت الأنظار إلى إمكانات ألمانيا في الشرق. تم في 22 حزيران 1940 توقيع اتفاقية الهدنة مع فرنسا، وقبل قليل من ذلك دخل الطامع في الغنائم بينيتو موسوليني الحرب إلى جانب ألمانيا، وبعد يومين حلل تقويم كتبه نيدرماير «بصورة سرية جدا» الوضع المتغير[21]: «نظريا، انطلقت تقاريري السابقة حول خوض الحرب

20. انظر يوهانس جلاسنيك / إنجه كيرشآيزن: تركيا وأفغانستان ـ نقطتا السياسة الشرقية الملتهبتان في الحرب العالمية الثانية. برلين (الشرقية) 1968، ص 211.

21. في الأرشيف الاتحادي ـ الأرشيف العسكري، رقم 122/ 9.

في الشرق الأدنى من وجهة نظر تعاون ألماني / روسي، وأخذت بالحسبان بصورة جانبية وحسب اشتراك إيطاليا في الحرب. في الفترة الماضية، صار الوضع بمجمله واضحا وبسيطا بالنسبة إلى تقويم ملموس، لأنه صار بالإمكان تجاهل موقع روسيا بعض الشيء، ولأن إيطاليا دخلت الحرب وفرنسا خرجت من أوروبا، ولأن الانتصارات الألمانية الهائلة حولت المزاج السياسي في دول البلقان والشرق الأدنى لصالحنا، ودفعت تركيا خاصة ومصر أيضا إلى إعلان رغبتهما الجلية في الحياد».

حدد تقويم نيدرماير بصورة صائبة التغيرات السياسية الإقليمية في منطقة البحر المتوسط والشرق الأدنى. بعد دخول إيطاليا في الحرب، صار ممكنا أن تقوم قوى المحور في المتوسط بالعمل ضد المواقع البريطانية في مصر والمنطقة العربية انطلاقا من المناطق الإيطالية في أفريقيا. لكنه كان هناك اليوم، مثلما كان هناك في 1914، نقص في الكادر الخبير، وفي الاتصالات والموارد، فالرايش الألماني لم يكن له أي تمثيل ديبلوماسي في المنطقة العربية، وأي شخص أو مجموعة أشخاص يمكن أن يتولى المصالح الألمانية في الشرق. ترى، من كان قادرا في حال كهذه على تعبئة المشاعر المتعاطفة مع ألمانيا؟. في مذكرته بتاريخ 24 حزيران 1940 رأى نيدرماير سانحة واحدة هي إرسال الرجل الصحيح إلى البلد الأهم استراتيجيا، واعتقد أن البلد الهدف يجب أن يكون المملكة العربية السعودية، أما الرجل الأفضل فكان في نظره الديبلوماسي فريتز جروبا، خصم فون هانتيج في وزارة الخارجية.

كان فريتز جروبا يعتبر خبير وزارة الخارجية الأول في شؤون الشرق الأدنى[22]. ولد جروبا عام 1886 في جراتس السيليزية الواقعة على نهر الأودر، وتحدر كنيدرماير من برجوازية إقليمية صاعدة. بعد دراسة اللغات الشرقية، عمل مترجما في وزارة الخارجية بعد حصوله على شهادة الدكتوراه

22. انظر مذكرات جروبا: رجال وقوى في الشرق، جوتنجن 1967.

عام 1913، حيث عمل أول الأمر كمترجم في قنصلية القدس الألمانية. ثم جند خلال الحرب العالمية الثانية متطوعين من أسرى حرب الكتائب الكولونيالية الفرنسية، وشكل فوجا من ألف رجل أدخله في آذار من عام 1916 إلى تركيا، ليضعه في خدمة «حربها المقدسة». كما قاتل، شأن نيدرماير وصهره المقبل، جنرال سلاح الجو اللاحق هيلموت فيلمي، كضابط في فلسطين عام 1917/ 1918 ضمن مجموعة الجيش المسماة «يلدريم».

كان جروبا سفير ألمانيا في بغداد بين عامي 1932 و 1939، وانخرط بسرعة في صراع مع فون هانتيج، المسؤول منذ عام 1936 في مركز الخارجية عن العراق أيضا، لأن جروبا كان يؤيد بقوة إرسال الأسلحة إلى السعودية والعراق، لكن هانتيج رفض ذلك أول الأمر.

عين جروبا مبعوثا ألمانيا في جده، لأن برلين كانت تحاول توسيع علاقاتها السياسية والاقتصادية مع العربية السعودية. كان جروبا يرى في ابن سعود عدوا محتملا للبريطانيين، وأراد توظيف نفوذه لصالح الرايش الألماني. ضغط جروبا على زملائه المترددين في وزارة الخارجية كي يوافقوا على إرسال أسلحة وسواها من العتاد الحربي إلى السعودية، لكن ابن سعود جمّد بضغط بريطاني علاقات بلاده الديبلوماسية مع برلين، دون أن يقطعها تماما، مثلما فعل العراق ومصر.

وصف نيدرماير في مذكرة 24 حزيران 1940 واقعة عدم حضور ألمانيا في جدة وبغداد، العاصمتين المهمتين استراتيجيا، بأنه غير مرض إلى أبعد حد. في حين حافظ الإيطاليون بذكاء على علاقاتهم معهما، بعد دخولهم المتأخر والمباغت إلى الحرب، لذلك يحتاج الرايش الألماني بالسرعة الممكنة إلى ممثل مؤتمن في الشرق، يعرف أحواله وبلدانه، يقوم بأنشطة سياسية وعسكرية تسهم في حسم الحرب الدائرة داخل أوروبا.

دعا نيدرماير إلى إقامة موقع سياسي آمن في العربية السعودية، التي

يجب أن ينطلق العمل منها ضد البريطانيين، ويتجه ضد قناة السويس وشرق الأردن وفلسطين وسوريا والمواقع البريطانية في الخليج. وقال إن ثمة موظفا واحدا في الخارجية يصلح لإنجاز هذه المهمة: «أرى أن المبعوث المعتمد في العراق والسعودية الدكتور جروبا هو الوحيد الذي يصلح لأن يكون ممثل ألمانيا الديبلوماسي هناك، فقد اختبرت معارفه ومؤهلاته خلال الحرب العالمية الأولى، عندما شارك مع أركانه في القتال ضد العقيد البريطاني لورانس ومن قادهم من العرب على سكة حديد الحجاز»، على أن يصحبه خبير عسكري مستتر، يستطلع الوضع ويعود بالسرعة الممكنة إلى برلين من أجل تقديم تقاريره. من الجلي أن نيدرماير كان يفكر هنا بنفسه.

لم تتح إمكانية عودة نيدرماير إلى الشرق قبل مطلع عام 1941، الفترة التي شهدت تغيرا مستمرا في مجمل أوضاع شمال أفريقيا والبلقان العسكرية، بعد أن كان الإيطاليون قد بدؤوا هجومهم أواخر صيف عام 1940 ضد مصر، لكن البريطانيين ردوهم على أعقابهم بعد نجاحات صغيرة تحققت لهم. في العاشر من كانون الأول بدأ الإنجليز هجوما معاكسا، واحتلوا خلال الشهرين التاليين ليبيا الإيطالية واستولوا في النهاية يوم 6 شباط على بنغازي. بذلك بلغت القدرة الهجومية البريطانية في شمال أفريقيا حد الإنهاك.

حملت السفن في نهاية شباط من عام 1941 إلى طرابلس فيلق أفريقيا بقيادة رومل، وبعد شهر بدأت دباباته تقدمها عبر الصحراء في اتجاه النيل، وتم خلال أربعة عشر يوما استرداد ليبيا كلها عدا حصن طبرق، وفي نيسان من العام ذاته بلغت دبابات رومل الحدود المصرية. ثم احتل مظليون ألمان كريت بعد خسائر فادحة، وسقطت شبه جزيرة البلقان وإيجه مع جزر الدوديكان في أيدي قوى المحور. الآن، كان الشرق في متناول اليد حقا. في 20 أيار ودع العقيد الأستاذ نيدرماير بكتاب خطي عميد كلية الفلسفة في جامعة برلين، وأخبره: «أن أمرا من القيادة العليا للقوات المسلحة أوكل إلي مهمة خاصة، وسأغادر مطلع الأسبوع القادم برلين إلى زمن غير محدد».